مِنَ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ
فِي سُورَتَيِ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ

(دِرَاسَةٌ بَلاَغِيَّةٌ)

إِعْدَادُ :

د. بَلْقِيس مُحَمَّد الطَّيِّب

الأُسْتَاذ الْمُسَاعِد فِي كُلِّيَّةِ التَّرْبِيَةِ لِلْبَنَاتِ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

المقدّمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وآله وصحبه الأبرار الأطهار، والتابعين لهم بإحسان من الكرام الأخيار.

أما بعد؛ فلا شيء أمتع للنفس من سويعات تقضيها في رحاب القرآن الكريم، كلام الله عز وجل، المتناهي في الفصاحة والبيان، ولقد كان من يُمْن الله وتوفيقه أن هيأ لي تلك الساعات التي قضيتها في رحاب كتابه، وفي ظلال آيتين منه أتفيأ معانيهما، وأتذوق عذب رحيقهما، وأظفر بما ادّخره السلف الصالح – رضوان الله عليهم – من كنوز غالية لا توزن بشيء من متاع الدنيا.

وهاتان الآيتان هما موضوع البحث، وعنوانه (من المتشابه اللفظي في سورتي البقرة وآل عمران دراسة بلاغية) ويتناول الآية ١٣٦ من سورة البقرة والآية ٨٤ من سورة آل عمران، تحليلا ودراسة لأسلوب التكرار فيهما؛ حيث إنهما من قبيل المتشابه اللفظي؛ وهو من المجالات التي بدأ البحث فيها مبكراً لبيان الإعجاز ودحض شبه الطاعنين والملحدين.

ومن دواعي العناية بهذا الجانب أيضاً تيسير حفظ كتاب الله تعالى على النفوس المؤمنة التي اتخذت من حفظه زلفى لها إلى رضوان الله عز وجل.

ولقد عني العلماء قدامى ومحدثون بدراسة المتشابه اللفظي وتوجيهه، ومن الدراسات الحديثة ما قام به أستاذي الكريم الدكتور إبراهيم الجعلي في كتابيه: (من جماليات التكرار في القرآن الكريم) و (من متشابه القرآن الكريم في ضوء البلاغة العربية)، حيث قام بدراسة المتشابه اللفظي في سورتي الفاتحة والبقرة حتى الآية ١٣٤ منها؛ فأردت أن أصل حبلي بحبله، وقمت بدراسة الآية ١٣٦

من هذه السورة ونظيرها في سورة آل عمران، وهو جهد متواضع يضاف إلى هذا الباب، ويهدف إلى توجيه التكرار في الآيتين الشريفتين موضوع البحث، مفيدًا من دراسات السابقين.

وكما تقتضي طبيعة الدرس البلاغي فإن البحث اعتمد على المنهج البياني القائم على تحليل النصوص ودراسة الأساليب وبيان قيمتها الفنية، و اقتضى هذا المنهج تقسيم البحث إلى تمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة:

تمهيد في بيان معنى المتشابه اللفظي وأهميته.

المبحث الأول: في معنى الآيتين: (أ) آية البقرة. (ب) آية آل عمران.

المبحث الثاني: من مواضع الاتفاق:

أولا: في الموضوع والغرض.

ثانيا: في النظم.

المبحث الثالث: من مواضع الاختلاف:

أولا: اختلاف المقام.

ثانيا: اختلاف النظم.

ثالثا: اختلاف الإعراب.

خاتمة وتشتمل على نتائج الدراسة.

وبعد، فهذا جهدي المتواضع أقدمه، فإن بلغ المراد فذلك الفضل من الله، ولله الحمد والمنّة، وإن كان ثمة قصور أو تقصير فمن نفسي والشيطان، وأستغفر الله، والله أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

* * *

تمهيد: معنى المتشابه اللفظي وأهميته

● المتشابه في اللغة:

المتشابه في اللغة هو المماثل، وهو مأخوذ من مادة(شبه) التي تدور معانيها حول المماثلة والمشاكلة.

وفي القاموس المحيط: "الشبه... المِثْل، ج: أشباه، وشابهه وأشبهه: ماثله... وتشابها واشتبها: أشبه كلٌّ منهما الآخر حتى التبسا. وشبَّهه إياه وشبَّهه به تشبيهاً: مثَّله. وأمور مُشتبِهة ومُشبَّهة.. مُشكِلة. والشُّبْهة.. الالتباس، والمِثْل. وشبَّه عليه الأمر تشبيهاً: لُبِّس عليه.."(١)

فالتشابه– إذًا– أن يقوى الشبه بين الشيئين إلى درجة اللبس، مما قد يكون مدعاة للحيرة والاضطراب في فهم الأمور، ومن ثم إثارة الشك والتساؤل حولها.

● المتشابه في القرآن الكريم:

المتشابه في القرآن الكريم نوعان: معنوي، ولفظي.

١) المتشابه المعنوي: وهو مقابل المحكم، وللعلماء في تعريف المحكم والمتشابه أقوال(٢)، أرجحها تعريف الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت ٦٠٦هـ): "أن المحكم ما كانت دلالته راجحة، وهو النص والظاهر، أما المتشابه فما كانت دلالته غير راجحة، وهو المجمل والمؤول والمشكل"(٣).

---

(١) مادة (شبه).

(٢) انظر مثلا: الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (دار المعرفة، بيروت، ط ٢، د. ت) ٢/٦٨ – ٦٩، السيوطي: الإتقان في علوم القرآن (مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط ٤، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨ م) ٢/٣ – ٤.

(٣) محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، راجعه وعلق عليه: محمد علي قطب ويوسف الشيخ محمد (المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، د. ط، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م) =

وذكر الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني أنه اختيار كثير من المحققين، لكونه جامعًا مانعًا(١). وهذا النوع ليس موضوع الدراسة.

٢) المتشابه اللفظي: وللعلماء في تعريفه أقوال منها:

ما ذكره الخطيب أبو عبد الله محمد بن عبد الله الإسكافي الرازي (ت ٤٢٠هـ) في معنى المتشابه أنه: "الآيات المتكررة بالكلمات المتفقة والمختلفة"(٢)

وقال تاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرماني (ت حوالي ٥٠٥هـ): "الآيات المتشابهات التي تكررت في القرآن وألفاظها متفقة، ولكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان، أو تقديم أو تأخير، أو إبدال حرف مكان حرف، أو غير ذلك مما يوجب اختلافاً بين الآيتين أو الآيات التي تكررت من غير زيادة ولا نقصان"(٣).

وعرفه أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨هـ) بأنه: "ما تكرر من آياته لفظاً، أو اختلف بتقديم أو تأخير وبعض زيادة في التعبير"(٤).

أما بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت٧٩٤هـ) فقال معرفاً علم المتشابه اللفظي: "هو إيراد القصة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة، ويكثر في إيراد القصص والأنباء"(٥).

= ٢/٢٥١، وانظر: الفخر الرازي: التفسير الكبير (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٣، د. ت) ٧/١٦٨.

(١) مرجع سابق، انظر ٢/٢٥٢.

(٢) درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، رواية: ابن أبي الفرج الأردستاني (دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٤، ١٤٠١هـ/١٩٨١م) ص ٧.

(٣) أسرار التكرار في القرآن، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا (دار الاعتصام، القاهرة، ط ٣، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م) ص ١٧.

(٤) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، تحقيق: سعيد الفلاح (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ١/١٤٥.

(٥) البرهان، مرجع سابق، تحقيق: يوسف المرعشلي وآخرين (دار المعرفة، بيروت، ط ٢، =

ولم يخرج المتأخرون عما ذكره الزركشي في التعريف⁽¹⁾.

فالمتشابه اللفظي– إذًا– هو المكرر في القرآن الكريم، وله صورتان:

(أ) فقد تتكرر الآية بجميع ألفاظها، ومن أمثلته تكرار قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ في سورة الرحمن، وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ في سورة القمر، وقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ في سورة المرسلات.

(ب) وقد يقع التكرار في بعض الآية فقط، وله أقسام عدة أهمها:

١– تقديم اللفظ في موضع وتأخيره في آخر، ومثاله قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١].

٢– الزيادة والنقصان، أي زيادة الكلمة أو الحرف في موضع ونقصانها في آخر، ومثاله في الكلمة قول الله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٢]، ومثاله في الحروف قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٦]، وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٨].

٣– الإبدال، وهو إبدال كلمة بغيرها وحرف بآخر، ومثاله في الكلمة قول الله تعالى: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠]، وقوله تعالى:

= ١٤١٥هـ/١٩٩٤م) ١/٢٠٧.

[1] انظر: السيوطي: الإتقان، مرجع سابق، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، د. ط. ت) ٣/٣٣٩ – ٣٤٠، حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (مكتبة المثنى، بغداد، د. ط. ت) ١/٢٠٣، طاش كبري زاده: مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، تحقيق: كامل بكري وآخر (دار الكتب الحديثة، القاهرة، د. ط. ت) ٢/٥٢٤ – ٥٢٥ .

﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [لقمان: ٢١]، ومثاله في الحرف قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا﴾ [البقرة: ٥٧]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا﴾ [الأعراف: ١٦١].

٤- الإفراد والجمع، وهو مجيء الكلمة مفردة تارة ومجموعة تارة أخرى، ومثاله في الكلمة قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٧٩]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران: ٢٤].

٥- التذكير والتأنيث، وهو مجيء الكلمة مرة مذكرة وأخرى مؤنثة، ومثاله قوله تعالى: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

٦- التعريف والتنكير، وهو ورود الكلمة نكرة في موضع ومعرفة في آخر، ومثاله قول الله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]، وقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ٢١].

٧- الإدغام وتركه، وهو مجيء الحرف مدغمًا في موضع وبغير إدغام في آخر، ومثاله قول الله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤].

٨- أن يكون في موضع على نظم، وهو في آخر على عكسه، ومثاله قول الله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [الأعراف: ١٦١].

وهذا القسم قريب من القسم الأول (التقديم والتأخير)، وقد شبهه

الزركشي برد العجز على الصدر(١).

ونلاحظ من الأقسام السابقة أن الاختلاف يقع في الصيغة فقط، وأما المعاني فغالباً ما تكون متفقة، أو ذلك ما يبدو ظاهرياً على الأقل. ومن هنا جاءت عناية العلماء بهذا العلم؛ علم المتشابه اللفظي، أو " الآيات المشتبهات" كما يسمى عند بعضهم(٢).

● بداياته وأهميته:

يتضح من الدلالة اللغوية لمعنى المتشابه أنه قد يوقع في اللبس والإشكال، ولذلك كان متشابه القرآن الكريم مجالا لطعن الطاعنين والملحدين، وقد تولى العلماء الرد على الشُبَه والاعتراضات التي يثيرها هؤلاء تمحيصاً للحق وبياناً للإعجاز، وكان ذلك يأتي في ثنايا الكتب التي تناولت الإعجاز عموماً على نحو ما نجده عند أبي محمد عبد الله بن قتيبة (ت٢٧٦هـ) وأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) مثلا. وتركز دفاع العلماء على بيان أن التكرار من أساليب العرب في كلامها، يلجأ إليه المتكلم للتأكيد والإفهام، أو للتفنن في القول، فلا غرابة– إذًا– في استخدام القرآن الكريم لهذا الأسلوب، قال ابن قتيبة: "فقد أعلمتك أن القرآن نزل بكلام القوم، وعلى مذاهبهم. ومن مذاهبهم التكرار: إرادة التوكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار: إرادة التخفيف والإيجاز، لأن افتنان المتكلم والخطيب في الفنون، وخروجه من شيء إلى شيء أحسن من اقتصاره في المقام على فن واحد"(٣). ثم قام بتوجيه بعض آيات من المتشابه اللفظي مما عابه الطاعنون كسورة الرحمن والكافرون.

---

(١) الزركشي: مرجع سابق (ط دار المعرفة) انظر: ٢٠٧/١ .

(٢) ورد هذا الاسم عند السيوطي وحاجي خليفة وطاش كبري زاده .

(٣) تأويل مشكل القرآن، شرح: السيد أحمد صقر (دار التراث، القاهرة، ط ٢، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م) ص ٢٣٥ .

وعلى هذا النحو سار الباقلاني الذي رأى في التكرار وسيلة للدعوة وبياناً للإعجاز، ومما قاله: "... ووجه آخر، وهو أن النبي ﷺ كان يحتاج إلى بعث الرسل و إنفاذ الدعاة إلى البلدان، فأراد أن تقرأ عليهم القصة الواحدة بألفاظ مختلفة، فربما كان ذلك أصلح لهم عند الله تعالى. ووجه آخر وهو أنه لو لم يكرر لجاز أن يقول بعض قريش للنبي ﷺ: كيف تتحدانا بهذه القصة وأنت البادئ بها؟ فإن أتينا بها بمثل اللفظ قلت(١): هذا نفس ما جئتنا به، وإن أتينا بها بغير اللفظ كنت مطالباً لنا بالمحال، فكرر الله تعالى القصص بوزن خارج عن أوزان الكلام المعهود عندهم ليريهم بذلك عجزهم ويقطع شبههم"(٢).

ولم يكن ثم تركيز على جميع المتشابه في القرآن الكريم، بل اقتصر الأمر على المواطن التي يقع فيها الطعن.

ويبدو أن عناية العلماء انصرفت بعد ذلك إلى جانب آخر من المتشابه، وهو حصر آياته في القرآن الكريم تيسيراً لحفظها، يدعوهم إلى ذلك ما جاء في فضل كتاب الله، والدرجة الرفيعة التي ينالها أهله. ولعل أكثر ما ألف في المتشابه اللفظي من هذا القبيل.

وربما كان أول من ألف في المتشابه هو علي بن حمزة الكسائي (ت١٨٧هـ)، قال جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ):

" أفرده [أي علم الآيات المشتبهات] بالتصنيف خلق، أولهم – فيما أحسب – الكسائي، ونظمه السخاوي، وألف في توجيهه الكرماني كتابه (البرهان في توجيه متشابه القرآن)(٣)، وأحسن منه (درة التنزيل وغرة التأويل)

---

(١) في الكتاب (قالت) وصوابه ما أثبت .

(٢) نكت الانتصار لنقل القرآن، تحقيق: محمد زغلول سلام (منشأة المعارف، الإسكندرية، د. ت)، ص ٢١٣ – ٢١٤ .

(٣) نشر الكتاب باسم (أسرار التكرار في القرآن) تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، كما نشر =

لأبي عبد الله الرازي، وأحسن من هذا(ملاك التأويل) لأبي جعفر بن الزبير... وللقاضي بدر الدين بن جماعة في ذلك كتاب لطيف سماه (كشف المعاني عن متشابه المثاني)(١)، وفي كتابي أسرار التنزيل المسمى (قطف الأزهار في كشف الأسرار) من ذلك الجم الغفير"(٢).

وقد أورد الدكتور يوسف المرعشلي محقق كتاب البرهان للزركشي قائمة طويلة لما صنف في هذا العلم(٣)، وما ألف في المتشابه اللفظي أكثره حصر وجمع له، أما ما صنف في توجيهه فقليل كما يبدو من كلام السيوطي، ولعل أشهر ما كتب فيه تلك الكتب التي أشار إليها في كلامه آنف الذكر، وقد وضعت في مرحلة تالية لمرحلة الحصر والجمع، لكن السيوطي لا يحدد أول من صنف في توجيه المتشابه، ولعله أبو عبد الله الرازي(٤) المعروف بالخطيب الإسكافي صاحب " درة التنزيل " الذي قال في مقدمة كتابه:

"فعزمت عليها(٥) بعد أن تأملت أكثر كتب المتقدمين والمتأخرين... فما وجدت أحداً من أهلها بلغ غاية كنهها، ففتقت من أكمام المعاني ما أوقع فرقاناً، وصار المتشابه وتكرار المتكرر تبياناً."(٦) وقد جعل من غايات تأليف كتابه تيسير

= بالاسم نفسه لذات المحقق في ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، نشر دار الكتب العلمية .

(١) نشر الكتاب باسم (كشف المعاني في المتشابه المثاني) تحقيق: مرزوق إبراهيم.

(٢) مرجع سابق (ط المشهد الحسيني) ٣/٣٣٦ .

(٣) الزركشي، مرجع سابق (ط دار المعرفة) انظر: ١/حاشية ص ص٢٠٢ ـــ ٢٠٦ .

(٤) ذكر الدكتور يوسف المرعشلي محقق البرهان أن الرازي المذكور هنا هو الإمام فخر الدين الرازي، ولعله وهم، لأنه نسبه قبل ذلك إلى الخطيب الإسكافي: وقد سبق أن نسب حاجي خليفة الكتاب المذكور إلى الفخر الرازي. انظر: البرهان ١/حاشية ص ٢٠٣، ٢٠٦، حاجي خليفة: مرجع سابق ١/٧٣٩ .

(٥) أي دراسة الآيات المتشابهات .

(٦) مرجع سابق ص ٨ .

حفظ كتاب الله تعالى، إذ قال مخاطبًا حملة الكتاب العزيز: "إني مذ خصني الله بإكرامه وعنايته، وشرّفني بإقراء كلامه ودرايته، تدعوني دواعٍ قوية يبعثها نظر وروِيَّة، في الآيات المتكررة بالكلمات المتفقة والمختلفة، وحروفها المتشابهة المنغلقة والمنحرفة، تطلبًا لعلامات ترفع لبس إشكالها، وتخصُّ الكلمة بآيتها دون أشكالها... "(١).

وتلاه الكرماني، ثم أبو جعفر بن الزبير، وبدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة (ت٧٣٣هـ)، وأبو يحيى زكريا بن محمد الأنصاري (ت٩٠٦هـ) صاحب كتاب"فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن" وغيرهم.

وفي هذه المؤلفات كان الدافع أيضاً رد الشُّبَه والاعتراضات التي أثيرت– أو قد تثار– حول المتشابه اللفظي، كما صرح بذلك الخطيب حين قال: "وصار المتشابه وتكرار المتكرر تبياناً، ولطعن الجاحدين رداً، ولمسلك الملحدين سداً"(٢)، وبمثل ذلك قال الكرماني وابن الزبير(٣). كما ذكر ابن جماعة أنه ألف كتابه "كشف المعاني في المتشابه المثاني " للإجابة عن بعض أسئلة طلبة العلم حول القرآن " من اختلاف ألفاظ معانٍ مكررة، وتنويع عبارات فنونه المحررة، ومن تقديم وتأخير، وزيادات ونقصان، وبديع وبيان، وبسط(٤) واختصار، وتعويض حروف بأغيار..."(٥)، وقال الزركشي مبيناً أهمية هذا العلم: "وحكمته التصرف في الكلام وإتيانه على ضروب؛ ليعلمهم عجزهم عن جميع

---

(١) السابق ص ٧ .

(٢) السابق ص ٨ .

(٣) انظر الكرماني: مرجع سابق ص ١٨، وابن الزبير: مرجع سابق ص ١٤٧ .

(٤) في الأصل (وبسيط) والصواب ما أثبت .

(٥) كشف المعاني في المتشابه المثاني، تحقيق: مرزوق علي إبراهيم، (دار الشريف للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، ١٤٢٠هـ) ص ٨٦ .

طرق ذلك.."[1]، فأضاف هدفاً آخر– ذكره الباقلاني– وهو إثبات الإعجاز.

وحين نشطت الدراسات القرآنية في العصر الحديث اهتم الباحثون بدراسة التكرار في القرآن الكريم وتوجيه المتشابه فيه، ومن هذه الدراسات: "التكرار أسرار وجوده وبلاغته في القرآن الكريم" لحامد حنفي داوود، و " أضواء على متشابهات القرآن" لياسين خليل، و " متشابه النظم في قصص القرآن" لعبد الغني عوض الراجحي، و"ظاهرة التكرار في القرآن الكريم" للدكتور عبد المنعم حسن، و " من جماليات التكرار في القرآن الكريم"، و "من متشابه القرآن الكريم في ضوء البلاغة العربية" للدكتور إبراهيم الجعلي، وهذان الكتابان أفادت منهما الدارسة في توجيه منهج البحث.

ومما تهدف إليه هذه الدراسات توجيه الأنظار إلى ما في هذا الجانب (أي المتشابه اللفظي) من إعجاز يؤكد أن القرآن الكريم من عند الله عز وجل أوحاه إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ومنها ما يعنى بالجانب الإحصائي للآيات في القرآن الكريم مما يكشف عن وجه جديد للإعجاز هو الإعجاز العددي.

وتسعى هذه الدراسة إلى استجلاء جوانب من هذا الإعجاز، فنسأل الله التوفيق والسداد.

* * *

---

[1] مرجع سابق (ط دار المعرفة) ٢٠٧/١ .

المبحث الأول: في معنى الآيتين

قال الله تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]

قال الله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤]

إن الإيمان بالله هو الدين الحق الذي شرعه الله لعباده، وخلقهم من أجله، وقد اصطفى من عباده رسلا يقومون بمهمة التبليغ والدعوة إلى التوحيد الخالص، وهذا هو الأساس الذي قامت عليه الشرائع السماوية. وكان موقف المؤمنين واحداً من جميع الرسالات كما كان موقف الكافرين واحداً كذلك.

كان هذا هو المحور الذي دارت حوله آيتا البقرة وآل عمران. فلنستعرض – في ضوئه – ما تحمله الآيتان من معان وأهداف.

- آية البقرة:

عندما تكوَّن المجتمع الإسلامي في المدينة كان هناك أهل الكتاب الذين ما فتئوا يجادلون المسلمين، ويدَّعون أن أديانهم خير، وأن جميع الرسل منهم، كما كانوا يزعمون أنهم لا يؤمنون بسوى أنبيائهم ورسلهم. وقد تولى القرآن الكريم دحض مزاعم أهل الكتاب وحجاجهم فيما ادعوه، وتعليم المسلمين المنهج الصحيح للإيمان حتى لا يحذوا حذوهم.

ومما جاء في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥] أنها نزلت في رؤوس يهود المدينة ونصارى نجران، وذلك أنهم خاصموا المسلمين في الدين، ودعت كل

طائفة إلى دخولهم في دينها لأنه أفضل الأديان، فأنزل الله تعالى هذه الآية⁽¹⁾.

فقد بين الله – سبحانه وتعالى – أن مزاعم أهل الكتاب باطلة، وأن الدين الحق هو ملة إبراهيم عليه السلام، ثم جاءت الآية التالية مبينة حقيقة هذه الملة: ﴿قُولُوٓا ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ الآية. هذه هي العقيدة الصحيحة، الإيمان بالله – عز وجل – وبجميع أنبيائه ورسله وما أنزل عليهم دون تفريق. أما أديان أهل الكتاب المحرفة فبعيدة عن الحق، ولذلك حذر رسول الله ﷺ من اتباعهم وتصديقهم أو تكذيبهم، أخرج البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ "الآية»⁽²⁾.

ونص الآية صريح في وجوب الإيمان بكل الأنبياء والرسل وما أنزل عليهم من ربهم على الإجمال دون تفريق، وهي تنعى على أهل الكتاب ذلك التناقض الذي فرقوا به بين الرسل، فآمنوا ببعضهم وكفروا ببعضهم الآخر، وتحذر المسلمين من السير على نهجهم؛ لأن عقيدة التوحيد واحدة لا تتغير ولا تتبدل، وجميع الرسل دعوا إلى عبادة الله وحده. قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ):

"... قولوا أيها المؤمنون لهؤلاء اليهود والنصارى.. (آمنا) أي صدقنا بالله ... (وما أنزل إلينا) يقول أيضا: صدقنا بالكتاب الذي أنزل الله إلى نبينا محمدﷺ..وآمنا بما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط

---

(١) أبو الحسن الواحدي: أسباب النزول، تحقيق: السيد أحمد صقر (دار القبلة للثقافة الإسلامية بجدة ومؤسسة علوم القرآن ببيروت، ط ٧، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) انظر ص٧٦.

(٢) أبو عبد الله البخاري: صحيح البخاري، باهتمام: عبد المالك مجاهد (دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧ م) كتاب التفسير، باب ﴿قولوا ءامنا بالله وما أنزل إلينا﴾، ح ٤٤٨٥، ص ٩٢.

...وآمنا بالتوراة التي آتاها الله موسى، وبالإنجيل الذي آتاه الله عيسى، والكتب التي آتى النبيين كلهم، وأقررنا وصدقنا أن ذلك كله حق وهدى ونور من عند الله، وأن جميع من ذكر الله من أنبيائه كانوا على حق وهدى، يصدق بعضهم بعضاً، على منهاج واحد في الدعاء إلى توحيد الله، والعمل بطاعته.(لا نفرق بين أحد منهم) يقول: لا نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض، ونتبرأ من بعض ونتولى بعضاً، كما تبرأت اليهود من عيسى ومحمد عليهما السلام وأقرت بغيرهما من الأنبياء، وكما تبرأت النصارى من محمدﷺ وأقرت بغيره من الأنبياء، بل نشهد لجميعهم أنهم كانوا رسل الله وأنبياءه، بعثوا بالحق والهدى"(١).

أما كيف يكون إيماننا بالأنبياء السابقين، فواجب الإيمان بهم على الجملة، وأنهم رسل من عند الله، أنزل عليهم وحيه وأمرهم بتبليغ أقوامهم، وأما الإيمان بمحمدﷺ وكتابه فواجب جملة وتفصيلا(٢)، إذ " أنا مكلفون أولا بالإيمان بما انزل على نبينا محمدﷺ جملة وتفصيلا، ولا يجب أن نؤمن بما أنزل على من قبله إلا على سبيل الإجمال دون التفصيل؛ لما فيه من الأحكام المنسوخة"(٣).

ولما اشتملت عليه الآية الكريمة من أصول الإيمان كان الرسول ﷺحريصا على قراءتها في الركعتين اللتين قبل الفجر، أخرج مسلم في صحيحه عن ابن عباس – رضي الله عنهما – " أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في ركعتي الفجر: في الأولى منهما: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية التي في البقرة، وفي

---

(١) تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: محمود محمد شاكر، مراجعة: أحمد محمد شاكر (دار المعارف، مصر، ط ٢، د. ت) ١/١٠٩–١١٠.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (دار الأندلس، د. ب، ط ٢، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) انظر: ١/٣٢٩.

(٣) زاده: حاشية محيي الدين زاده على تفسير البيضاوي (دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ط.ت) ١/٤٣٦.

الأخرى منهما: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]"(١)، وعنه أيضًا " كان رسول الله ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ والتي في آل عمران: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤]"(٢). وما أجدر بالمسلم أن يحرص على هذه السنة فيجدد إيمانه كل يوم بهذه الآية الكريمة.

● آية آل عمران:

موكب النبوة واحد، يتوالى فيه الرسل، يدعون إلى عقيدة واحدة، ويصدق بعضهم بعضاً، وتتوالى فيه الشرائع، يؤيد بعضها الآخر، ومن إكرام الله لنبينا محمدﷺ أخذ الميثاق على النبيين قبله بتصديقه ونصرته، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

ولما أخذ الله ميثاق النبيين في الآية السابقة، بين في الآية اللاحقة –موضع البحث– صفة الرسول الذي اخذ الميثاق عليه، فذكر من صفته أنه مصدق لما معهم فقال: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية. وفي هذه الآية أخذ الميثاق على رسوله ﷺعلى التصديق بالأنبياء قبله، ولم يذكر النصرة لتأخره عنهم. قال شهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي(ت ١٢٧٠هـ): "لم يتعرض لنصرته– عليه الصلاة والسلام– لهم؛ إذ لا مجال– بوجه– لنصرة السلف"(٣).

---

(١) صحيح مسلم (دار المغني للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م) كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب ركعتي سنة الفجر، والحث عليهما وتخفيفهما والمحافظة عليهما، وبيان ما يستحب أن يقرأ فيهما، ح ٩٩، ص٣٦٦ .

(٢) السابق، الصفحة نفسها، ح١٠٠ .

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. =

هذا وقد أمر الله نبيه ﷺ بالإقرار بنبوة الأنبياء لما في ذلك من فوائد، منها:

١- إثبات كونه عليه الصلاة والسلام- ومعه أمته- مصدقاً لجميع الأنبياء.

٢- التنبيه على تناقض أهل الكتاب؛لأن ثبوت المعجز لبعض الأنبياء يقتضي ثبوته لبعضهم الآخر، لأن مصدر التلقي واحد للجميع، فالتصديق ببعضهم والتكذيب بالآخر فيه تناقض ينبغي ألا يقع فيه المسلمون.

٣- بيان تميز أمة الإسلام عن أهل الكتاب باتباعهم دين الله وتصديقهم بجميع الأنبياء، أما أهل الكتاب فقد أعرضوا وكذبوا أنبياء الله.

٤- بيان أن الميثاق الذي أخذ على النبيين واحد، وهو التصديق بجميع الرسل الذين اصطفاهم الله لرسالاته(١).

والأمر – في الآية – توجيه للرسول ﷺ لأن يعلن على الناس حقيقة رسالته، وهي الدعوة إلى التوحيد الخالص الذي دعا إليه الأنبياء والرسل من قبل، ويبين دور الأمة المسلمة في حمل دعوة الإسلام خاتمة الرسالات، قال سيد قطب مبيناً هذا الدور: "ولما كانت الأمة المسلمة... هي الأمة المدركة لحقيقة العهد بين الله ورسله، وحقيقة دين الله الواحد ومنهجه، وحقيقة الموكب السَّني الكريم الذي حمل هذا المنهج وبلغه؛ فإن الله يأمر نبيه ﷺ أن يعلن هذه الحقيقة كلها ويعلن إيمان أمته بجميع هذه الرسالات، واحترامها لجميع الرسل، ومعرفتها بطبيعة دين الله، الذي لا يقبل من الناس سواه"(٢). وكفى الأمة الإسلامية بهذا شرفاً وفخراً.

نخلص مما سبق إلى أن الآيتين – موضوع البحث- تقرران موضوعاً

= ط. ت) ٢١٤/٣.

(١) الفخر الرازي: مرجع سابق (دار الكتب العلمية، طهران، ط ٢، د. ت) انظر ١٢٤/٨

(٢) في ظلال القرآن (دار الشروق، بيروت، ط ٥ شرعية، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧ م) ٤٢٢/٢.

واحداً، وتهدفان لغاية واحدة هي الدعوة إلى عبادة الله وحده، وترسمان السبيل إلى ذلك، وهو الإيمان بالرسالات السماوية جميعاً على الإجمال، وبشريعة الإسلام الخالدة جملة وتفصيلا، مع خلوص القصد واتباع النهج الذي جاء به الرسول الكريمﷺ.

ووحدة الغرض في الآيتين الكريمتين تشعر بتماثلهما، فكأن الثانية هي الأولى، خلا تغيير يسير في اللفظ.

والآيتان من قبيل المتشابه اللفظي لوجود التكرار فيهما، فهل لهذا التكرار سر بلاغي؟ وهل له قيمة في تحقيق الغرض من الآيتين؟ ذلك ما ستعرضه هذه الدراسة من خلال بيان مواضع الاتفاق والاختلاف في الآيتين الكريمتين. فإلى ما يلي من الصفحات.

* * *

المبحث الثاني: من مواضع الاتفاق

من الطبعي وقد وقع التكرار في الآيتين الكريمتين– موضع البحث– أن ندرس مواضع الاتفاق فيهما، لنرى إلى أي مدى بلغ التماثل فيهما، وما صلته بموضوع الآيتين وغرضهما. وسيتم تناول هذه المواضع من جانبين:

أولا: الموضوع والغرض. ثانيا: النظم

- أولا: الموضوع والغرض:

تقرر الآيتان أهم أصول الإيمان التي لا يقوم بدونها، وهي الإيمان بالله وحده، وبأنبيائه، وكتبه، وقد سلكت الآيتان منهجاً واحداً في تعليم المسلمين كيفية الإيمان الصحيح على النحو الذي أوجبه الله تعالى؛ فابتدأت كل منهما بتقرير الإيمان به تعالى؛ لأنه الأصل الذي قامت عليه الشرائع، ثم الإيمان بالقرآن المنزل على محمدﷺ؛ لأنه مناط التكليف لأمة الإسلام، وهم متعبدون به، ثم الإيمان بالأنبياء المذكورين جملة وتفصيلا(١)، حتى لا يقعوا فيما وقع فيه أهل الكتاب من تناقض حين آمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعضهم الآخر.

أما الغرض الذي هدفت إليه الآيتان فهو تقرير العقيدة الحقة، وبيان حقيقة الرسالة المحمدية الداعية إلى التوحيد الحق الذي دعت إليه الرسالات السماوية السابقة؛ لأنها جميعًا من مصدر واحد هو الله جل جلاله.

- ثانيا: النظم:

اتفقت الآيتان الكريمتان في الجوانب الآتية:

١ – الإنشاء ٢– التقديم والتأخير.
٣–الخصوص والعموم. ٤– الإجمال والتفصيل.
٥–التعبير بالإيتاء. ٦– التذييل.

---

(١) أي:الأنبياء المذكورة أسماؤهم وغير المذكورة .

وفيما يلي البيان:

١ – الإنشاء: اشتملت الآيتان على إحدى صور الإنشاء وهي الأمر، وله أهميته في هذا الموطن الذي يرمي إلى تقرير العقيدة الحقة وترسيخها في النفوس حتى لا تكون مجالا للمزايدة عليها.

وقد تماثلت الآيتان في البدء بجملة الأمر (قالوا، قل) ثم اختلفتا في ضمير الخطاب لاختلاف السياق، فالمخاطب في آية البقرة المؤمنون، وفي آية آل عمران الرسول ﷺ.

وناسب الإتيان بالأمر في آية البقرة؛ لأن المقام مقال جدال مع أهل الكتاب وتفنيد ادعائهم بأن دينهم خير الأديان، حيث دعوا المسلمين إلى اتباعهم، فجاء الأمر قوياً يلفت المؤمنين إلى ما في دعوى أهل الكتاب من الفساد. وكأن الآية السابقة: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ تثير التساؤل حول هذه الملة. فتأتي الإجابة حاسمة في صورة الأمر: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ حتى تقطع الطريق على كل جدال.

أما في سورة آل عمران فقد اشتمل حديث الميثاق على أقوى أساليب القسم والإقرار ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾، فناسب ذلك الإتيان بصيغة الأمر الحاسم في أخذ الميثاق على نبينا ﷺ، والله أعلم.

٢– التقديم والتأخير: من المعلوم أن الألفاظ تترتب في النطق حسب ترتيب معانيها في النفس، فتقدم أو تؤخر تبعاً لذلك كما ذكر الإمام عبد القاهر ابن عبد الرحمن الجرجاني (ت ٤٧١ ﻫ)(١)، ويكون التقديم والتأخير لأحد أمور

---

(١) الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق: محمد رضوان الداية وفايز الداية (مكتبة سعد الدين، دمشق، ط٢، ١٤٠٧ﻫ/١٩٨٧م) انظر ص ٩٤ .

خمسة: الزمان، والطبع، والرتبة، والسبب، والفضل والكمال⁽¹⁾.

ونلاحظ في الآيتين – موضع البحث– اتفاقهما في التقديم والتأخير حسب الاعتبارات السابقة، وذلك في عدد من المواضع:

أ)تقدم في الآيتين الإيمان بالله على الإيمان بالكتب، وهو تقدم بالرتبة؛ وذلك لأن الإيمان بالله هو الأصل ويترتب عليه بقية أصول الإيمان. فلا عبرة بالإيمان بالرسل والكتب المنزلة ما لم يسبقه الإيمان بالله، وهو الذي أرسل الرسل وأنزل عليهم الكتب لهداية الناس، ولأن "الإيمان بالله لا يختلف باختلاف الشرائع"⁽²⁾. ويجوز أن يكون التقديم للسبب، فالإيمان بالله سبب للإيمان بالرسل والكتب، قال الألوسي: "وقدم الإيمان بالله سبحانه لأنه أول الواجبات، ولأنه بتقدم معرفته تصح معرفة النبوات والشرعيات"⁽³⁾.

ثم ذكر في المرتبة الثانية الإيمان بالكتب لأنها وحي الله إلى أنبيائه ورسله، وهي مناط التكليف لجميع المكلفين من الرسل وأقوامهم.

ب) تقديم القرآن الكريم على غيره من الكتب السماوية، فمع أنه متأخر في الترتيب النزولي إلا أنه قدم في الذكر على غيره، لأمور:

أولها، أن المخاطب هو الرسولﷺ وأمته، وهم مكلفون بالإيمان بالقرآن على الإجمال والتفصيل، وملزمون بالعمل به لأنه كتابهم، وحيث إن شريعة الإسلام قد نسخت الشرائع السابقة، فإن الإيمان بالكتب السابقة يكون على الجملة، ويكفي في شأنها التصديق بأنها من عند الله تعالى.

وثانيها، أن الإيمان بالقرآن سبب للإيمان بغيره، فجاء التقديم باعتبار

---

(1) أبو القاسم السهيلي: نتائج الفكر في النحو، تحقيق: محمد إبراهيم البنا (دار الرياض للنشر والتوزيع، الرياض، ط ٢، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) انظر: ص ٢٦٧ .

(2) الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير (الدار التونسية د. ب. ط. ت) ٧٣٩/١

(3) مرجع سابق ٣٩٤/١ .

السبب، قال الألوسي: "وهو(أي القرآن) وإن كان في الترتيب النزولي مؤخراً عن غيره، لكنه في الترتيب الإيماني مقدم عليه، لأنه سبب الإيمان بغيره لكونه مصدقاً له، ولذا قدمه"(١).

وثالثها، أن الكتب السماوية السابقة قد وقع فيها التحريف والتبديل، فلا سبيل إلى معرفة أحوالها إلا من القرآن الكريم، فكان كالأصل لها، ومما ذكره الفخر الرازي في ذلك قوله: "وفي المرتبة الثانية ذكر الإيمان بما أنزل عليه، لأن كتب سائر الأنبياء حرفوها وبدلوها، فلا سبيل إلى معرفة أحوالها إلا بما أنزل الله على محمدﷺ، فكان ما أنزل على محمد كالأصل لما أنزل على سائر الأنبياء، فلهذا قدمه عليه"(٢).

جـ) تقديم الأنبياء(إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط) عليهم السلام، وقد روعي هنا الترتيب الزمني، ولعل السبب في تقديم هؤلاء على (النبيين) يرجع إلى أن المذكورين هم أنبياء بني إسرائيل الذين تحدث عنهم السياق، " وهم الذين يعترف أهل الكتاب بوجودهم ويختلفون في نبوتهم"(٣).

وشبيه بذلك التقديم: تقديم(موسى وعيسى) عليهما السلام على سائر النبيين، لمناسبة الحديث عن أهل الكتاب في السياق، ونزاعهم فيهما، وقدم(موسى) على (عيسى) لأنه أسبق زماناً.

٣- العموم والخصوص: نلحظ في الآيتين التدرج في الانتقال من خصوص إلى عموم، مع مراعاة الترتيب التاريخي بالنسبة للأنبياء، وعدم مراعاته في الكتب، وقد جاء الخصوص والعموم في عدة مواضع:

أ) تخصيص القرآن الكريم بالذكر مفرداً لأنه الأصل، وهو كتاب أمة

---

(١) السابق، الصفحة نفسها .

(٢) مرجع سابق (ط دار الكتب العلمية) ١٢٤/٨ .

(٣) السابق، الصفحة نفسها .

محمد ﷺ المتعبدة به كما سبق.

ب) تخصيص (إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط) عليهم السلام بالذكر؛ لأن هؤلاء أنبياء بني إسرائيل، وهم موضع النزاع والخصومة، فإبراهيم عليه السلام تنازعته الطوائف الثلاث: اليهود والنصارى ومشركو العرب، كل يدعي أنه منهم فنفى الله تعالى ذلك، وسياق آية البقرة فيه رد على تلك الدعوى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، فرد ادعاء تلك الطوائف وبيّن حقيقة ملة إبراهيم– عليه السلام – في قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ الآية.

وقد ذكر نظام الدينَ الحسن بن محمد النيسابوري (ت ٧٢٨هـ) أن تخصيص هؤلاء الأنبياء بالذكر لشهرتهم وتقدمهم وشرفهم، قال: "ثم ذكر الإيمان بما أنزل على مشاهير الأنبياء؛ إذ لا سبيل إلى حصر الكل"⁽¹⁾، في حين ذكر الألوسي أن تخصيص هؤلاء لاعتراف بني إسرائيل بنبوتهم وكتبهم⁽²⁾.

ج) تخصيص(موسى وعيسى) بالذكر، وذلك لأمور:

أولها، لأنهما خصا بكتب أنزلت عليهما، فأما إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط عليهم السلام فعُدَّ إنزال الصحف على إبراهيم – عليه السلام– إنزالا عليهم، لأنهم متعبدون بها جملة وتفصيلا. وليس الأمر كذلك بالنسبة إلى موسى وعيسى عليهما السلام، فلكل منهما كتاب، وشريعة ناسخة لما قبلها، قال محيي الدين محمد بن شيخ زاده (ت ٩٥١هـ) معللا:

"أمر التوراة والإنجيل بالنسبة إلى موسى وعيسى ليس كأمر ما أنزل إلى الأسباط بالنسبة إليهم، فإن ما أنزل إليهم إنما هو صحف منزلة إلى إبراهيم عليه

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض (مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط ١، ١٣٨١هـ/١٩٦٢م) ٢/٢٤١ وانظر أيضًا: ١/٤٦٩ .

(٢) مرجع سابق انظر: ٣/٢١٥ .

الصلاة والسلام، وأن الأسباط كلفوا باتباع ما في تلك الصحف من الأحكام ودعوة الناس إلى العمل بما فيها من غير أن ينسخ شيء من أحكامها بخلاف التوراة والإنجيل، فإنهما كتابان مستقلان بالشريعة، ناسخان لبعض أحكام الصحف السابقة، فلذلك أفردا بالذكر.."(١).

وثانيها، لأن السياق يتحدث عن اليهود والنصارى، ولوقوع النزاع في هذين النبيين خاصة، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣]، قال ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي (ت ٦٨٥ أو ٦٩٢هـ): "أفردهما [أي التوراة والإنجيل] بحكم أبلغ؛ لأن أمرهما بالإضافة إلى (موسى وعيسى) مغاير لما سبق، والنزاع وقع فيهما"(٢).

وثالثها، لوقوع التحريف في الكتابين: التوراة والإنجيل(٣)، وادعاء أهل الكتاب أنهما- بعد التحريف- منزلان من عند الله هكذا.

فلهذه الاعتبارات ناسب تخصيص هذين النبيين وكتابيهما بالذكر.

د) العموم في (وما أوتيَ النبيون)، وذلك لإفادة العموم والشمول، فيشمل جميع الأنبياء وكل الكتب المنزلة دون تخصيص، "وهو تعميم بعد التخصيص، كيلا يخرج من الإيمان أحد من الأنبياء "(٤).

٤-التفصيل بعد الإجمال: وهو ضرب من ضروب الإطناب سماه البلاغيون الإيضاح بعد الإبهام، وفيه يُرى المعنى في صورتين مختلفتين: إحداهما مبهمة والأخرى موضحة(٥)، وجعل منه بعض العلماء التفصيل بعد

---

(١) مرجع سابق ٤٣٦/١ .

(٢) تفسير البيضاوي على هامش حاشية شيخ زاده ٤٣٧/١ .

(٣) الألوسي: مرجع سابق، انظر: ٣٩٥/١ .

(٤) السابق، الصفحة نفسها .

(٥) ينظر الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق وتنقيح: محمد عبد المنعم =

الإجمال(١)، وهو أنسب هاهنا؛ لأن المعنى المجمل ليس بالضرورة أن يكون مبهمًا، بل فيه إجمال وإيجاز يأتي تفصيله في العبارة اللاحقة.

وإيراد الحقائق على ضرب من الإجمال ثم التفصيل من شانه أن يقررها في النفس ويجعلها أكثر رسوخاً وتمكناً، كما أن فيه إثارة وتشويقاً لمعرفة تفاصيل الأمر المخبر عنه، وبالتالي يكون المرء أكثر إصغاء وتقبلا له(٢). وقد درج القرآن الكريم على استخدامه على نحو ما نجده في الآيتين موضع البحث، فقد اشتملتا على إجمال وتفصيل.

ففي آية البقرة بيان للملة الواردة في قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾؛ لأن فيها بدل اشتمال أو بدل بعضٍ من كل(٣)، ومعلوم أن جملة البدل فيها إبهام أو إجمال يوضحه البدل. والتفصيل– في الآية – له أهميته في الرد على أهل الكتاب وتعليم المسلمين المنهج الصحيح للإيمان، قال أبو السعود محمد بن محمد العمادي(ت ٩٥١هـ): "(قولوا) خطاب للمؤمنين بعد خطابه عليه السلام برد مقالتهم الشنعاء على الإجمال، وإرشاد لهم إلى طريق التوحيد والإيمان على ضرب من التفصيل"(٤).

= خفاجي (دار الجيل، بيروت، ط ٣، د. ت) ١٩٦/٣؛ سعد الدين التفتازاني: مختصر السعد على تلخيص المفتاح " ضمن شروح التلخيص " (دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٣، د.ت) ٢١٠/٣ .

(١) الزركشي: البرهان، مرجع سابق، (ط المعرفة) انظر: ٤٧٨/٢ .

(٢) انظر: الخطيب القزويني: مرجع سابق، ١٩٦/٣ – ١٩٧، شروح التلخيص (دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٣، د.ت) ٢١٠/٣ – ٢١١ .

(٣) انظر: الألوسي: مرجع سابق، ٣٩٤/١، ابن عاشور: مرجع سابق، ٧٣٨/١ .

(٤) تفسير أبي السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا (مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، د. ط.ت) ٢٦٧/١ .

أما آية آل عمران فإنها بينت صفة الرسول الذي أخذ عليه ميثاق الأنبياء؛ فإنه "لما ذكر تعالى في الآية المتقدمة أنه إنما أخذ الميثاق على الأنبياء على تصديق الرسول الذي يأتي مصدقاً(١) لما معهم، بين في هذه الآية أن من صفة محمدﷺ كونه مصدقاً لما معهم فقال: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ "(٢).

وهذا التفصيل يتناسب مع السياق، ويبين وحدة الميثاق بين الأنبياء، مما يستلزم الإيمان بهم جميعاً دون تفريق.

٥- التعبير بالإيتاء مع موسى وعيسى عليهما السلام: جاء في الآيتين قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ وزاد في البقرة قوله: ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ﴾، فلم عبر بالإيتاء بدلاً من الإنزال جريا على النسق العام للآيتين الكريمتين؟

إن إيثار لفظ"الإيتاء" على "الإنزال"- في هذا الموضع- يعود إلى عدة أمور:

أ- لأن فيه مزيد تكريم واختصاص للنبيين(موسى وعيسى) عليهما السلام؛ "لأن الإعطاء لكونه منبئاً عن إيصال الخير إلى أحد والامتنان بتخصيصه بالتكريم أبلغ من الإنزال الذي هو مجرد نقل الشيء من علو إلى سفل"(٣).

ب- ولإفادة العموم، فمن معاني الإتيان: إرسال الآيات وإنزال الكتاب(٤)، وعلى هذا فلفظ(أوتي) يتناول الكتب وغيرها كالمعجزات(٥).

ج- وللاهتمام بأمر الكتابين التوراة والإنجيل، لكونهما مستقلين بالشريعة، ناسخين لما قبلهما، والنزاع وقع فيهما(٦).

---

(١) في الأصل (مصدق) والصواب ما أثبت .

(٢) الرازي: مرجع سابق (ط دار الكتب العلمية) ١٢٣/٨ .

(٣) زاده: مرجع سابق ٤٣٦/١ .

(٤) مجد الدين الفيروزآبادي: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، د.ط، ١٣٨٣ هـ) انظر: ٤٦/٢ .

(٥) الألوسي: مرجع سابق، انظر: ٣٩٥/١ .

(٦) زاده: مرجع سابق، انظر: ٤٣٧/١ .

د-وللتنويع في الأسلوب، قال ابن عاشور: "والتعبير في بعض الشرائع بلفظ (أنزل) وبعضها بلفظ (أوتي) تفنن لتجنب إعادة اللفظ الواحد مراراً"(١).

والأمر نفسه في قوله: ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ﴾ ففيه تكريم لهم، وتعميم لكل ما أوتوه.

٦- التذييل: التذييل من أنواع الإطناب وهو تعقيب جملة بأخرى إرادة التوكيد(٢)، وقد ذيلت الآيتان بقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، وهو تعقيب يناسب موضوعهما، ففيه تأكيد على تمسك المسلمين بالإيمان بربهم وبالأنبياء والكتب المنزلة عليهم.

ونلحظ في هذا التذييل بلاغة التعبير بكلمة (مسلمون) لأسباب، منها:

أ-معنى الكلمة، ويأتي لفظ الإسلام في القرآن الكريم لثلاثة معان: الإخلاص، والإقرار، والدين(٣). وهنا في هذه الآية يعني الإخلاص والخضوع، قال الطبري في الآية: "ونحن له خاضعون بالطاعة، مذعنون له بالعبودية"(٤)، وقال الرازي: "إن إقرارنا بنبوة هؤلاء الأنبياء إنما كان لأجل كوننا منقادين لله تعالى، مستسلمين لحكمه وأمره"(٥).

ولم تستخدم كلمة "مخلصون" مثلا لأن الإخلاص فيه عموم، كإخلاص الأخ لأخيه، والصديق لصديقه، أما الإسلام فيعني إسلام الوجه لله وإخلاص العبادة له، فلا يشركه أحد في هذا المعنى.

ب- التعبير بكلمة (مسلمون) يبين تميز أمة محمد ﷺ عن غيرها، أما لفظ

---

(١) مرجع سابق ٧٣٩/١ .

(٢) الخطيب القزويني: مرجع سابق، انظر: ٢٠٥/٣ .

(٣) الفيروزابادي: البصائر، مرجع سابق، انظر: ١٨٣/٢ .

(٤) مرجع سابق ١١٠/١ .

(٥) مرجع سابق (ط دار الكتب العلمية) ١٢٥/٨ .

(المؤمنين) مثلا فعام يدخل فيه الموحدون لله من جميع الأمم. وقد دل القرآن الكريم على أن هذا الإطلاق خاص بأمة محمدﷺ استجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، قال تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] وقال في موضع آخر: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨].

هذا إذا أخذ اللفظ على عمومه، أما إذا نظرنا إلى الإسلام والإيمان ابالمفهوم العقدي، وأن الإسلام يعني الأعمال الظاهرة (عمل الجوارح) والإيمان يعني الأعمال الباطنة (عمل القلب)، وأن اللفظين إذا اجتمعا اختلفا وإذا تفرقا اتفقا[١]، فإن التعبير بلفظ (مسلمون) يضيف معنى آخر – علاوة على الدلالة الاصطلاحية – وهو عموم الأمر وشموله لكل من تسمى باسم الإسلام، فينبغي لجميع المسلمين أن يقولوا: (آمنا بالله وما أنزل إلينا – إلخ)، وأن يطبقوا هذا القول حقيقة وواقعًا حتى يكونوا متبعين لشريعة محمد وملة إبراهيم عليهما الصلاة والسلام.

ج– التعبير بكلمة (مسلمون) فيه بيان لصدق المسلمين في إيمانهم، وإسلامهم الخالص لله؛ ولهذا لم يفرقوا بين رسول وآخر، خلافاً لأهل الكتاب الذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، فإن إيمانهم عن ميل وهوى وليس خالصاً لله، ومما قاله الرازي في هذا المعنى: "فالمعنى أن إسلامنا لأجل طاعة الله تعالى لا لأجل الهوى، وإذا كان كذلك فهو يقتضي أنه متى ظهر المعجز وجب الإيمان به، فأما تخصيص بعض أصحاب المعجزات بالقبول، والبعض بالرد، فذلك يدل على أن المقصود من ذلك الإيمان ليس طاعة الله والانقياد له، بل اتباع الميل والهوى"[٢].

---

[١] انظر في هذا المعنى: ابن أبي العز الحنفي: شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: جماعة من العلماء (المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٤، ١٣٩١ هـ) ص ٣٧٣ – ٣٧٥، ٣٨٧ – ٣٩٤.

[٢] السابق ٨٣/٤.

ونسيج العبارة (ونحن له مسلمون) يقرر هذا المعنى فقد جاءت جملة اسمية تقدم فيها المتعلق (له) على الخبر مما يؤكد إخلاص المسلمين في إيمانهم لله بعيداً عن الميل والهوى، كما يؤكد– من جانب آخر– تميزهم عن غيرهم.

د– ولتحقيق التناسب بين المعاني– في الآيتين – جاء التعبير بـــ(ما أنزل إلينا) في أول الكلام و(المسلمون) في آخره، فكان ختاماً يناسب الابتداء، قال صاحب "التحرير": "ومن مناسبات هذا المعنى أن ابتدىء بقوله(وما أنزل إلينا) واختتم بقوله(ونحن له مسلمون)، ووسط ما أنزل على النبيين بين ذلك"⁽¹⁾.

وبعد: هذه مواضع الاتفاق بين الآيتين يتضح من خلالها مدى الاتصال الوشيج بينهما، وكان لوحدة الموضوع والغرض دور في اختيار الصيغة الأسلوبية الملائمة للتعبير عن المعاني، فتراوح الأسلوب ما بين التقديم والتأخير، والعموم والخصوص، والإجمال والتفصيل، مع الدقة في تخير اللفظ، ثم كان خاتمة ذلك التذييل الذي أكد على وحدة المعنى وسمو الغرض.

* * *

---

(١) مرجع سابق ١/٧٣٨ .

المبحث الثالث: من مواضع الاختلاف

عرفنا – الآن – نقاط الالتقاء بين الآيتين الكريمتين موضع البحث. فهل يعني ذلك أنهما متماثلتان تماماً؟ وأن آية آل عمران هي تكرار لآية البقرة؟

لننظر في مواضع الاختلاف بين الآيتين قبل أن نقرر الإجابة.. وتجدر الإشارة إلى أن العلماء والمفسرين عنوا بدراسة مواضع الاختلاف في الآيتين أكثر من عنايتهم بمواطن الاتفاق، ، لأنها محل الشبهة والتساؤل.

وتدور الدراسة هاهنا حول محاور ثلاثة:

١ – اختلاف المقام. ٢– اختلاف النظم. ٣– اختلاف الإعراب.

- أولا: اختلاف المقام:

وردت آية البقرة – كما سبق – في سياق يتضمن الرد على أهل الكتاب في دعواهم أن دينهم خير دين، وأن إبراهيم عليه السلام منهم، ودعوا المسلمين لاتباعهم، فأمر الله عز وجل رسوله بالرد عليهم: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ثم جاءت الآية– موضع البحث–لتبين حقيقة ملة إبراهيم عليه السلام، وأمر الله عز وجل المسلمين أن يقولوا رداً على أهل الكتاب: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية، أي إن: كنتم حقاً على ملة إبراهيم، فهذه هي ملته، نؤمن بها وبأنبياء الله جميعاً وبالكتب التي أنزلت عليهم.

فالمقام– إذًا – مقام جدل وتفنيد لمزاعم أهل الكتاب، وبيان حقيقة الإيمان الذي أمر الله به عز وجل.

وقد اشتمل قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ على جواب جدلي، وذلك أنه"لما ثبت أن إبراهيم كان قائلا بالتوحيد، وثبت أن النصارى يقولون بالتثليث، واليهود يقولون بالتشبيه، فثبت أنهم ليسوا على دين إبراهيم عليه السلام، وأن محمداً عليه السلام لما دعا إلى التوحيد كان هو على دين

إبراهيم"(١).

ثم جيء في الآية التالية ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ بجواب برهاني، وهو " أن الطريق إلى معرفة نبوة الأنبياء عليهم السلام ظهور المعجز عليهم، ولما ظهر المعجز على يد محمدﷺ وجب الاعتراف بنبوته والإيمان برسالته، فإن تخصيص البعض بالقبول وتخصيص البعض بالرد يوجب المناقضة في الدليل وأنه ممتنع عقلا، وهذا هو المراد من قوله: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾، وهذا هو الغرض الأصلي من ذكر هذه الآية"(٢).

فالبرهان على نبوة محمدﷺ ظاهر، وهو إمداده بالمعجزات كغيره من الأنبياء، والكفر به– بعد ذلك– يدل على تناقض أهل الكتاب. والمولى عز وجل يحذر المسلمين من الوقوع في هذا التناقض ويرشدهم إلى الإيمان الحق.

أما المقام في آية آل عمران فمختلف؛ إذ يتحدث السياق عن الميثاق الذي أخذ على النبيين، ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَٰقَ النَّبِيِّنَ﴾، وهذا الميثاق هو الإيمان بالرسول الذي يأتي بعدهم مصدقاً لما معهم، ثم اخذ الميثاق على محمد ﷺ بالإيمان بهم وكتبهم، فقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ الآية، " والحاصل أخذ الميثاق من الجانبين على طريقة واحدة"(٣).

فهنا مقام الحديث عن النبوة والأنبياء، وهذا المقام يناسبه من الأسلوب ما يحفل بالتعظيم والتكريم لصفوة الله من خلقه، فاقتضى ذلك اختلاف النظم الكريم في آية آل عمران عن مثيله في آية البقرة.

- **ثانيا: اختلاف النظم:**

ويتناول عدة جوانب:

---

(١) الرازي: مرجع سابق (ط دار الكتب العلمية) ٤/٨٠ .

(٢) السابق ٤/٨٢ .

(٣) الألوسي: مرجع سابق ٣/٢١٤ .

١) اختلاف الخطاب في الآيتين: أفاض العلماء في الحديث عن هذا الموضع، ويكاد إجماعهم يتفق على أن الخطاب في آية البقرة للمؤمنين(قولوا)، والخطاب في آية آل عمران للرسول ﷺ (قل)، ثم اختلفوا في آية البقرة: هل يدخل الرسولﷺ في الخطاب الجمعي؟. وفي آية آل عمران: هل تدخل الأمة في الخطاب الإفرادي؟ على آراء سنذكرها فيما يلي:

أ- بالنسبة لآية البقرة: الخطاب فيها للمؤمنين من أمة محمدﷺ يؤيد ذلك ضمير الجمع في: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾. واستدل البيضاوي على أن الخطاب للمؤمنين بالآية اللاحقة: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ [البقرة: ١٣٧]، (١) ويدخل فيه الرسولﷺ من باب العموم أو التشريك كما ذكر ابن الزبير(٢).

وقدر بعض العلماء عدم دخول النبي الكريمﷺ في الخطاب؛ لأنه خوطب في الآية السابقة ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، وممن قال بهذا الرأي شيخ زاده(٣)، وذكره الفخر الرازي والنيسابوري منسوبا إلى الحسن، غير أنهما رجحا عموم الخطاب في الآية للرسول- عليه الصلاة والسلام- وأمته(٤).

وقيل: إن الخطاب يجوز أن يكون للكافرين، " أي: قولوا لتكونوا على الحق، وإلا فأنتم على الباطل"؛ لأن السياق يتحدث عن أهل الكتاب الذين زعموا أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام، قاله جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، وأبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي (ت٧٠١هـ)، والنيسابوري،

---

(١) زاده، مرجع سابق، انظر: ١/٤٣٦ .

(٢) مرجع سابق، انظر: ١/٢٣٩ .

(٣) مرجع سابق، انظر: ١/٤٣٦ .

(٤) انظر: الرازي: مرجع سابق (ط دار الكتب العلمية) ٤/٨٣، النيسابوري: مرجع سابق ١/٤٦٩ .

وشهاب الدين أحمد بن يوسف السمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ)(١).

وقد ضعف الألوسي هذا الرأي قائلا: "الخطاب للمؤمنين لا للكافرين، لما فيه من الكلف والتكلف"(٢).

والرأي الراجح أن الخطاب في الآية للمؤمنين، لما تقدم من أن أهل الكتاب دعوا المسلمين لاتباع دينهم، فنـزل القرآن الكريم يعلمهم حقيقة الإيمان، ويبين ضلال أهل الكتاب الذين يؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض.

وليس هناك ما يمنع دخول النبي ﷺ في الخطاب خاصة أن الآية السابقة كان الخطاب فيها له ﷺ. والتوجيه الإعرابي يقوي ذلك، فقوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ بمنزلة بدل بعضٍ من: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أو بدل الاشتمال لما فيه مِنَ التفصيل، قال الألوسي: "... فهو بمنزلة بدل البعض من قوله سبحانه: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾؛ لأن الاتباع يشمل الاعتقاد والعمل، وهذا بيان الاعتقاد؛ أو بدلَ الاشتمال لما فيه من التفصيل الذي ليس في الأول"(٣).

وقد يرد هاهنا سؤال وهو: إذا كان الخطاب للمؤمنين، فما وجه إضافة الإنزال إليهم وهو لا يكون إلا للرسل؟

قال الطبري مجيباً: "أضاف الخطاب بالتنزيل إليهم، إذ كانوا متبعيه ومأمورين منهيين به، فكان– وإن كان تنزيلا إلى رسول الله ﷺ – بمعنى التنزيل

---

(١) انظر: الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، د. ط.ت) ٣١٥/١، النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل (دار إحياء الكتب العربية، د. ب. ط.ت) ١٦٧/١، النيسابوري: مرجع سابق ٤٦٩/١، السمين الحلبي: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: أحمد محمد الخراط (دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م) ١٣٨/٢ .

(٢) مرجع سابق ٣٩٤/١ .

(٣) السابق، الصفحة نفسها، وانظر أيضا: ابن عاشور: مرجع سابق ٧٣٨/١ .

إليهم، للذي فيه من المعاني التي وصفت"(١).

فلما كان الخطاب عاماً لجميع المكلفين، وكان القرآن الكريم متعبداً به جملة وتفصيلا؛ صح نسبة الإنزال إليهم، ويقاس على هذا أيضا قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾، فالصحف أنزلت على إبراهيم - عليه السلام- خاصة، لكن لما كان الأنبياء المذكورون مكلفين بها على الإجمال والتفصيل صح نسبة إنزالها إليهم، قال البيضاوي: "وهي وإن نزلت(أي الصحف) إلى إبراهيم، لكنهم لما كانوا متعبدين بتفصيلها، داخلين تحت أحكامها، فهي أيضاً منزلة إليهم، كما أن القرآن منزل إلينا"(٢).

وذهب الخطيب - ومعه ابن الزبير - إلى أن الإنزال مجاز في المؤمنين حقيقة في الرسول(٣)، غير أن القول الأول أرجح، والله أعلم.

ب- بالنسبة لآية آل عمران: الخطاب فيها للرسول الكريم ﷺ ورجح بعض العلماء دخول الأمة في الخطاب بدليل قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، قال أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان (ت ٧٥٤ هـ): "ويقوي أنه إخبار عنه وعن أمته قوله أخيرًا: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾"(٤).

والظاهر أن أبا محمد عبد الحق بن عطية (ت ٥٤٦هـ) قدر محذوفاً لتدخل الأمة في الخطاب، ويصبح تقدير الكلام على هذا: "قل يا محمد أنت وأمتك آمنا بالله"(٥).

---

(١) مرجع سابق ١/١١٠ .

(٢) مرجع سابق ١/٤٣٦ .

(٣) انظر: الخطيب الإسكافي: مرجع سابق ٣٦، ابن الزبير: مرجع سابق، ١/٢٣٩ .

(٤) التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط (مكتبة ومطابع النصر الحديثة، الرياض ، د.ط ت) ٢/٥١٦ .

(٥) السابق، الصفحة نفسها، وانظر أيضا: ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، =

ولا يخفى ضعف هذا الوجه، لأن ظاهر السياق وضمير الجمع في(آمنا، علينا، نحن) يقوي دخول الأمة في الخطاب دون تكلف أو تقدير محذوف.

ووجه إفراد الرسول ﷺ في الخطاب لتقدم ذكره في السياق، ، قال أبو حيان: "وأفرده بالخطاب بقوله (قل) لأنه تقدم ذكره في أخذ الميثاق في قوله: ﴿ثم جاءكم رسول﴾، فعينه في هذا التكليف ليظهر فيه كونه مصدقاً لما مع الأنبياء الذين أخذ عليهم الميثاق"⁽¹⁾.

وقد يثار سؤال في هذا الموضع: لِمَ وحد الضمير في (قل) وجمع في (آمنا)؟ للعلماء تأويلات لهذا الاختلاف في الضمير، منها ما يتعلق بالرسول ﷺ، ومنها ما يتعلق بالأمة.

فأما ما يرجع إلى الرسول ﷺ فإنه أمر بذلك تكريماً وإجلالا لقدره، فدعي إلى أن يتحدث عن نفسه حديث الملوك، قال الزمخشري: "ويجوز أن يؤمر بأن يتكلم عن نفسه كما يتكلم الملوك إجلالا من الله لقدر نبيه"⁽²⁾.

ولأن الرسول عليه الصلاة والسلام هو المبلغ عن ربه، توجه إليه الأمر بأن يخبر عن نفسه وأمته بحقيقة دعوته، وعلى الأمة أن توافقه وتتابعه؛ ولهذا " خاطبه أولا بخطاب الوحدان ليدل هذا الكلام على أنه لا مبلغ لهذا التكليف من الله إلى الخلق إلا هو، ثم قال(آمنا) تنبيهاً على أنه حين يقول هذا القول فإن أصحابه يوافقونه عليه"⁽³⁾.

= تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد (دار الكتب العلمية: بيروت، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م) ٤٦٧/١ .

(١) السابق، الصفحة نفسها .

(٢) مرجع سابق ٤٤٢/١، وانظر أيضا: الرازي: مرجع سابق (ط دار الكتب العلمية) ١٢٣/٨، النيسابوري: مرجع سابق ٢٤١/٢، الألوسي: مرجع سابق، ٢١٤/٣ .

(٣) الرازي: مرجع سابق (ط دار الكتب العلمية) ١٢٣/٨ .

ويرى الزركشي أن هذا الخطاب ليس تشريفًا للرسول ﷺ فقط بل للأمة أيضًا، قال: "وهو تشريف منه سبحانه لهذه الأمة، بأن يخاطبها بغير واسطة لتفوز بشرف المخاطبة؛ إذ ليس من الفصيح أن يقول الرسول للمرسَل إليه: قال لي المرسِل: "قل كذا وكذا "؛ ولأنه لا يمكن إسقاطها، فدل على أن المراد بقاؤها، ولابد لها من فائدة، فتكون أمرًا من المتكلم للمتكلم بما يتكلم به، أمره شفاهًا بلا واسطة، كقولك لمن تخاطبه: افعل كذا... "(١).

وجوز أبو السعود" أن يكون الأمر عاماً والإفراد لتشريفه عليه السلام، والإيذان بأنه عليه السلام أصل في ذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١] "(٢).

وأما ما يعود إلى الأمة، فقد جاء ضمير الجمع في (آمنا، علينا) للإشارة إلى دخولها في التكليف، وأن الإنزال على الرسول إنزال على الأمة كلها، ومن ثم فهي مأمورة باتباعه وإعلان الدعوة إلى الله وحده والسير على شرعه، قال البيضاوي: "أمر للرسول عليه السلام بأن يخبر عن نفسه ومتابعيه بالإيمان، والقرآن كما هو منزل عليه منزل عليهم، بتوسيط تبليغه لهم، وأيضاً المنسوب إلى واحد من الجمع قد ينسب إليهم"(٣). وقال النيسابوري: "وأما وجه الجمع في (آمنا) فلتشريف أمته بانضمامهم معه في سلك الإخبار عن الإيمان، أو ليعلم أن هذا التكليف ليس من خواصه، وإنما هو لازم لجميع المؤمنين، كقوله: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ [البقرة ٢٨٥] "(٤).

وغاية القول إن بناء الكلام على الجمع بعد خطاب الواحد فيه تشريف

---

(١) البرهان (ط دار الكتب العلمية) ٢٥١/٢ وما بعدها .

(٢) مرجع سابق ٥٠٨/١ .

(٣) مرجع سابق ٦٤٥/١ .

(٤) مرجع سابق ٢٤١/٢ .

والزام؛ تشريف للأمة بانخراطها في سلك الخطاب مع نبيها مثلما هو تعظيم له ﷺ، وإلزام لها بالتكليف كما هو إلزام له ﷺ.

ولا شك أن هذا الأسلوب أليق بالمقام، مقام النبوة والأنبياء.

٢) اختلاف تعدية الفعل(أنزل):

مما اختلفت فيه الآيتان الكريمتان تعدية الفعل (أنزل)، فقد جاء متعدياً بـــ(إلى)في آية البقرة، و(على) في آية آل عمران.

فما سبب هذا الاختلاف؟

بالرجوع إلى الأصل اللغوي للفعل (نزل) يتضح أنه يفيد معنى" الهبوط من علو إلى سفل"(١). ثم قد يختلف معنى الفعل– مع بقاء أصله اللغوي– إذا تعدى بالحرف، فإذا اتصل بـــ(على) أفاد معنى الاستعلاء لأنه من معانيها، وإذا اتصل بـــ(إلى) أفاد من معانيها الانتهاء(٢).

وبالطبع فإن السياق هو الذي يحدد استخدام أحد الحرفين، ولكن السياق القرآني كثيراً ما يستخدم أحد الحرفين مكان الآخر، مما كان سبب نقاش مستفيض بين العلماء، وتتلخص آراؤهم فيما يلي:

أ) أن الإنزال بـــ(على) خاص بالرسل، لأنه ينزل إليهم من فوق، أما الإنزال بـــ(إلى) فهو للأمة؛ لأنه منته إليها. وعلى هذا جاءت آيتا البقرة وآل عمران، قال الخطيب الإسكافي: "... وشرح ذلك أن"على" موضوعة لكون الشيء فوق الشيء، ومجيئه من علو فهو مختص من الجهات كلها بجهة واحدة، و "إلى " للمنتهى، ويكون المنتهى من الجهات الست كلها... فقوله تعالى: ﴿ قُولُوا

---

(١) السمين الحلبي: عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، تحقيق: محمد التونجي (عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤١٤ هـــ/١٩٩٣م) ١٨٨/٤ .

(٢) أبو الحسن الرماني: معاني الحروف، تحقيق: عبد الفتاح إسماعيل شلبي (دار الشروق، جدة، ط٣، ١٤٠٤ هـــ/١٩٨٤م) انظر: ص ١٠٨، ١١٥ .

ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ اختيرت فيها (إلى) لأنها مصدرة بخطاب المسلمين، فوجب أن يختار له (إِلَى)... فالمؤمنون لم ينزل الوحي في الحقيقة عليهم من السماء، وإنما أنزل على الأنبياء ثم انتهى من عندهم إليهم، .. ولما كانت في سورة آل عمران قد صدرت الآية بما هو من خطاب النبيﷺ ... كانت (على) أحق بهذا المكان لأن الوحي أنزل عليه، وفي لفظ(أنزل) دلالة على انفصال الشيء من فوق، ثم انتهى من عندهم إليهم أسفل.."(١).

وقد ذهب عدد من العلماء إلى هذا القول، منهم: الكرماني، وابن الزبير، وأبو يحيى الأنصاري، والسيوطي، ومجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادي (ت ٨١٧هـ)(٢).

ب) أن الإنزال يأتي بكلا الاعتبارين، لأن الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسل، فإذا اعتبرت مبدأه عديته بـ"على" وإذا اعتبرت منتهاه عديته بـ"إلى". قال بهذا الرأي الزمخشري واعترض به على القول الأول، وتابعه عدد من العلماء منهم: الرازي، والبيضاوي، والنسفي، وعلاء الدين علي بن محمد الخازن، وأبو السعود، والألوسي، وزاده(٣).

وقد رد النيسابوري على الزمخشري بأن القائل بالرأي الأول "لم يدَّعِ أن

---

(١) مرجع سابق ٣٥ .

(٢) انظر: الكرماني: مرجع سابق ٣٥، ابن الزبير: مرجع سابق ١/٢٣٩، الأنصاري: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، تحقيق: محمد علي الصابوني، (دار القرآن الكريم، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ص ٤١، السيوطي: الإتقان، مرجع سابق (ط المشهد الحسيني) ص ٣٤٣، الفيروز أبادي: البصائر، مرجع سابق ١/١٤٨ .

(٣) انظر: الزمخشري: مرجع سابق ١/٤٤٢، الرازي: مرجع سابق، (ط دار الكتب العلمية ٨/١٢٤)، زاده: مرجع سابق، ١/٦٤٥، النسفي: مرجع سابق، ١/١٦٧، الخازن: تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل (دار الفكر، بيروت، د.ط.ت) ١/٣١٥، أبا السعود: مرجع سابق، ١/٥٠٨، الألوسي: مرجع سابق ٣/٢١٥ .

هذه المناسبة يجب اعتبارها في كل موضع، وإنما ادُّعي اعتبارها في الموضعين، فيصلح حجة للتخصيص"(١).

وهذا هو الحق، فإن أصحاب الرأي الأول جوزوا أن يقع أحد الحرفين مكان الآخر، لكن التخصيص باعتبار الأولى والأنسب للمقام.

ج) أن الإنزال بـ"على" يأتي فيما أمر المنزل عليه أن يبلغه غيره، والإنزال بـ"إلى" يكون فيما اختص به في نفسه، لأن إليه نهاية الإنزال.

د) أن (على) لما كان خطابًا للنبي صلى الله عليه وسلم لمكان العلو وكان واصلا إليه من الملا الأعلى بلا واسطة، و(إلى) لخطاب الأمة لأنه وصل إليهم بوسلطة النبي صلى الله عليه وسلم.

والرأيان الأخيران ذكرهما أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)(٢)، وقد ضعفهما بعض أهل العلم(٣).

ولا يمكن القطع بأحد هذه الأقوال إلا بعد الدراسة الوافية لمادة (أنزل) في السياق القرآني. ويبدو للوهلة الأولى أن الرأي الأول أرجح لأن اللغة تنصره، لكن البلاغة لا تطرد دائما مع قواعد اللغة مما يرجح كفة الرأي الثاني.

* وقد وردت مادة "أنزل" (١٨٣) مرة في القرآن الكريم، منها(١٣١) مرة مقترنة بإنزال الكتب، و(٥٢) مرة في غير ذلك.

والجدول الآتي يوضح عدد مرات ورود الفعل(أنزل) مقترناً بـ"إلى" و"على" ومجرداً منها سواء في خطاب الرسل أم أقوامهم:

---

(١) مرجع سابق ٢٤٢/٢.

(٢) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني: من أول سورة آل عمران وحتى نهاية الآية ١١٣ من سورة النساء دراسة وتحقيقًا، تحقيق: عادل بن علي الشدي (مدار الوطن للنشر، الرياض، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م) ٦٨٩/١ – ٦٩٠.

(٣) انظر: أبا حيان: مرجع سابق ٥١٦/٢ – ٥١٧، الألوسي: مرجع سابق ٢١٥/٣.

إنزال الكتب	أنزل "إلى"	أنزل "على"	المجموع
مع الرسل	٢٧	١٥	٤٢
مع الأمم وغيرهم	١٦	١١	٢٧
بدون تعدية	–	–	٦٢
			١٣١

ومن الجدول يتضح:

١) أن ورود المادة مقترنة بالأنبياء أكثر من ورودها مقترنة بأقوامهم.

٢) أن المادة اقترنت بـ"إلى" في حق الأنبياء أكثر من اقترانها بـ"على".

٣) أن المادة اقترنت بـ"إلى" في حق الأنبياء أكثر من اقترانها بـ"إلى" في حق الأمم.

٤) أن المادة اقترنت بـ"إلى " في حق الأمم أكثر من اقترانها بـ"على".

وتفسير ذلك كما يبدو لي:

- أن اقتران مادة (الإنزال) بالرسل أكثر، لأن الأصل في الإنزال إليهم، وأممهم تبع لهم.
- أن اقتران المادة ب(إلى) أكثر سواء مع الرسل أم مع أقوامهم، لأن من معانيها- كما سبق- الانتهاء، والانتهاء يكون من الجهات الست كلها⁽¹⁾، وهذا يشير إلى عموم الرسالة وشمولها للناس كافة، مما يعزز مهمة الرسل والدعاة في الدعوة إلى الله عامة.

٣) تكرار (وما أوتي) في آية البقرة:

ذكر الإيتاء مرتين في آية البقرة: مرة مع موسى وعيسى عليهما السلام قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾، ومرة مع النبيين، ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ﴾ في

---

(١) انظر ٤٨ من البحث .

حين عطفت آية آل عمران الموضعين معا ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ﴾ .

فما السر في ذلك؟ لنعد إلى المقام مرة أخرى؛ فآية البقرة تؤكد بلاغة التكرار فيها للاعتبارات الآتية:

أ- أن الآية - كما سبق- جاءت في معرض الرد على مزاعم أهل الكتاب، ومقام الحجاج والجدل يقتضي البسط والإفاضة في عرض الشُبه والافتراءات وتفنيدها، فكان للتكرار معنى هناك.

ب- أن في الآية دلالة على التميز الذي اختص به المسلمون، من كونهم يؤمنون بجميع الرسل بلا تفريق، فناسب ذلك التكرار للتأكيد، قال ابن الزبير منوهاً بذلك: "ووجه ذلك أن الأمر في البقرة لما كان للرسل وللمؤمنين ناسبه تأكيد ذكر الإنزال على النبيين، لأن المؤمنين لا يفرقون بين أحد منهم وقد فرق غيرهم، فناسب حالهم وسجل إيمانهم بالجميع تأكيد مقالهم وتثبيت اعتقادهم فقالوا: ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ﴾ ..."(١).

ج- أن الخطاب في آية البقرة للعموم، فاقتضى ذلك البسط والتكرار في الكلام، قال أبو حيان: "وأما إعادة لفظ (وما أوتي) فلأنه لما كان لفظ الخطاب عاماً، ومن حكم الخطاب العام البسط دون الإيجاز، ولما كان الخطاب- هنا-(٢) خاصاً اكتفي بالإيجاز"(٣).

وأما مقام النبوة في آية آل عمران، فإنه يقتضي التفخيم والتعظيم، والإيجاز في الخطاب، وتميز الأنبياء عن غيرهم، "ولما كان توجه الأمر ... بادي الخطاب من قوله(قل) خاصاً به، وبعد ذلك وقع التعميم؛ ناسبه عدم التأكيد لتنزه الرسول- عليه السلام- حالا ومقاماً عن التفريق بين أحد من

---

(١) مرجع سابق ٢٤٠/١.

(٢) أي في آية آل عمران.

(٣) مرجع سابق ٥١٧/٢، وانظر أيضا: الأنصاري: مرجع سابق ٤١.

الرسل"(١).

هذا علاوة على أن الإيتاء سبق ذكره في أول السياق فأغنى عن إعادته، وهذا يشير إلى الترابط الوثيق بين آي القرآن الكريم، قال الخطيب الإسكافي: "إنما اختص هناك لأن العشر التي فيها(أي الآية) مصدرة بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ فقدم ذكر الإيتاء واكتفى به عن التكرير في الموضع الذي كرر فيه من سورة البقرة على سبيل التوكيد... ولما لم يتقدم في سورة البقرة ذكر إيتاء النبيين ما أوتوا من الكتب... لم يكن فيه ما يغني عن التوكيد بإعادة اللفظ"(٢)؛ فاختلاف المقام يوجب اختلاف الخطاب، وهذا من بلاغة القرآن التي تتقاصر دونها الأعناق.

ثالثا: اختلاف الإعراب: مع التشابه الظاهر بين الآيتين الكريمتين، فإنهما اختلفتا في الإعراب، فكانت الأولى لها محل من الإعراب والثانية لا محل لها، ويتضح ذلك فيما يلي:

آية البقرة لها محل من الإعراب لأنها وقعت بدلا من الآية السابقة لها: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، و (ملة)مفعول منصوب بفعل محذوف تقديره: بل نتبع، أو: الزموا وهو الأرجح(٣)، وتقدير فعل الأمر في الآية أرجح من تقدير المضارع؛ لأن البدل يجب أن يتبع المبدل منه في إعرابه.

ونوع البدل– في الآية – بدل بعض من كل أو بدل اشتمال، كما ذهب إلى ذلك الألوسي(٤)، وذكر صاحب"التحرير"أن البدل" لتفصيل كيفية هاته الملة

---

(١) ابن الزبير: مرجع سابق ١/ ٢٤٠.

(٢) مرجع سابق ٦ ٣، وانظر: الكرماني: مرجع سابق ٣٦، النسفي: مرجع سابق ١/١٦٨، الفيروزابادي: البصائر، مرجع سابق١/١٤٨.

(٣) انظر: السمين الحلبي: الدر المصون، مرجع سابق، انظر: ٢/١٣٥.

(٤) مرجع سابق، انظر ١/٣٩٤، وانظر أيضا ص ٣٦ من البحث.

بعد أن أجمل ذلك في قوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ "(١).

وقيل: في الآية استئناف، أيْ أنها جواب لسؤال مقدر عن (ملة إبراهيم)(٢). وكونها بدلا أبلغ، لعدم الحاجة إلى تقدير محذوف.

أما آية آل عمران فليس لها محل من الإعراب؛لأنها جاءت معترضة بين قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣] وبين قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، قال صاحب التحرير: "والجملة اعتراضٌ واستئنافٌ: لتلقين النبي عليه السلام كلاماً جامعاً لمعنى الإسلام ليدوموا عليه، ويعلن به للأمم، نشأ عن قوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ "(٣)

فالتوجيه الإعرابي – إذًا – يرجح جانب الاختلاف المعنوي بين الآيتين.

يتضح من العرض السابق أن ثمة تغايراً بين الآيتين الكريمين– موضع البحث– وقد ظهر جلياً في ناحيتي النظم والإعراب. وقد أكد التغاير اختلاف الآيتين في المعنى على الرغم من تشابههما اللفظي كما سبق أن قررنا، وأن هذا الاختلاف كان لحكمة اقتضاها المقام، مما يبرهن على تفرد البيان القرآني، وتحقيقه أسمى مقاصد البلاغة العالية التي تقف دونها المطامح.

* * *

---

(١) مرجع سابق ٧٣٨/١.

(٢) الألوسي: مرجع سابق، انظر: ٣٩٤/١.

(٣) مرجع سابق ٣٠٢/٣.

الخاتمة

توصلت الدراسة إلى عدة نتائج يمكن إجمالها فيما يلي:

أولا: التأكيد على عدم التشابه التام بين الآيتين الكريمتين- موضع البحث- رغم وحدة الموضوع والغرض فيهما، فهناك تشابه لفظي واختلاف معنوي بينهما؛ وذلك:

أ) لاختلاف المقام؛ فهو مقام الجدال في آية البقرة، ومقام النبوة في آية آل عمران.

ب) واحتياج كل من المقامين إلى أسلوب يلائمه؛ فمقام الجدل استدعى العموم في الخطاب، والبسط في المحاجة، والتكرار. ومقام النبوة اقتضى التفخيم والتعظيم، وخصوصية الخطاب، والإيجاز. ومن تمام التكريم تشريف الأمة بإدخالها في الخطاب مع نبيها.

ثانيا: إن وحدة الموضوع والهدف في كثير من آيات القرآن الكريم وسوره من أسباب وجود المتشابه اللفظي فيه.

ثالثا: إن التشابه اللفظي في الآيات القرآنية لا يعني تماثلها المعنوي، بل ثمة جوانب خفية في المعنى تبين عن عدم التطابق، والأمر يحتاج إلى دراسة المتشابه اللفظي وتوجيهه لاستجلاء تلك الجوانب.

رابعا: إن المؤلفات في المتشابه اللفظي كثيرة، لكن ما أُلف في توجيهه قليل، مما يفتح بابًا خصبًا للدراسة في هذا المجال.

خامسا: إن ضعف الإلمام باللغة والدلالات اللغوية للألفاظ يؤدي إلى الجهل بمعاني القرآن الكريم ومقاصده، مما يفتح باباً للشك والتساؤل والطعن في كتاب الله بغير علم.

سادسا: إن القرآن الكريم في مراعاته لأحوال المخاطبين وأقدارهم يقدم

لنا منهجاً تربوياً حكيماً في تعليم فنون الكلام وأصول الخطاب.

وبعد.. فهذا أوان الحمد، فلله الحمد على ما وفق وأعان، على إنجاز هذا البحث المتواضع، القليل في حق كتابه عز وجل.

وأستغفر الله من كل زلل، مما ندّ عن البيان، أو زلّ فيه القلم.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [الَبقرة: ٢٨٦].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم علي نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

* * *

ثبت المراجع

١) القرآن الكريم.

٢) الإسكافي، الخطيب أبو عبد الله الرازي: درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، رواية: ابن أبي الفرج الأردستاني (دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)

٣) الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط.ت)

٤) الأنصاري، أبو يحي زكريا: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن.تحقيق: محمد علي الصابوني (دار القرآن الكريم، بيروت، ط ١، ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣م)

٥) الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب: نكت الانتصار لنقل القرآن. تحقيق: محمد زغلول سلام (منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ط.ت) .

٦) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، باهتمام: عبد المالك مجاهد (دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٧م).

٧) البيضاوي، ناصر الدين بن سعيد: تفسير البيضاوي مطبوع على هامش حاشية الشيخ محي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي (دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط.ت) .

٨) التفتازاني، سعد الدين: مختصر السعد على تلخيص المفتاح، " ضمن شروح التلخيص " (دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٣، د. ت) .

٩) الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن: دلائل الإعجاز، تحقيق: محمد رضوان الداية وفايز الداية (مكتبة سعد الدين، دمشق، ط ٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

١٠) ابن جماعة، بدر الدين محمد بن إبراهيم: كشف المعاني في متشابه المثاني. تحقيق: مرزوق علي إبراهيم (دار الشريف للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، ١٤٢٠هـ) .

١١) حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (مكتبة المثنى، بغداد، د.ط.ت).

١٢) الحنفي، ابن أبي العز الحنفي: شرح العقيدة الطحاوية، حققها وراجعها: جماعة من العلماء، وخرج أحاديثها: محمد ناصر الدين الألباني، ومعها: التوضيح لزهير الشاويش (المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٤، ١٣٩١هـ)..

١٣) أبو حيان، أبو عبد الله محمد بن يوسف: التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط (مكتبة ومطابع النصر الحديثة، الرياض، د.ط.ت).

١٤) الخازن، علاء الدين علي بن محمد: تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل (دار الفكر،

بيروت، د.ط.ت).

١٥) الرازي، فخر الدين محمد بن عمر: التفسير الكبير (دار الكتب العلمية، طهران، ط ٢، د.ت)، التفسير الكبير (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٣، د. ت) .

١٦) الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى: معاني الحروف.تحقيق: عبد الفتاح إسماعيل شلبي (دار الشروق، جدة، ط٣، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م).

١٧) زاده، محي الدين شيخ: حاشية الشيخ محي الدين زاده على تفسير القاضي البيضاوي (دار احياء التراث العربي، بيروت، د.ط.ت).

١٨) ابن الزبير، أحمد بن إبراهيم: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل. تحقيق: سعيد الفلاح (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

١٩) الزرقاني، محمد عبد العظيم: مناهل العرفان في علوم القرآن (مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، د.ب.ط.ت)، مناهل العرفان في علوم القرآن، راجعه وعلق عليه: محمد علي قطب ويوسف الشيخ محمد (المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، د ط، ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٣م) .

٢٠) الزركشي، محمد بن عبد الله: البرهان في علوم القرآن. تحقيق: يوسف المرعشلي وآخرون (دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م)، البرهان في علوم القرآن. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (دار المعرفة، بيروت، ط٢، د. ت) .

٢١) الزمخشري، جار الله محمود بن عمر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، د.ط.ت).

٢٢) أبو السعود، محمد بن محمد العمادي: تفسير أبي السعود أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. تحقيق: عبد القادر أحمد عطا (مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، د.ط.ت).

٢٣) السمين الحلبي، أحمد بن يوسف: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون.تحقيق: أحمد محمد الخراط (دار القلم، دمشق، ط ١، ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦م).

٢٤) السمين الحلبي، أحمد بن يوسف: عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ – معجم لغوي لألفاظ القرآن الكريم.تحقيق: محمد التونجي (عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م).

٢٥) السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن عبد الله: نتائج الفكر في النحو.تحقيق: محمد إبراهيم البنا (دار الرياض للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

٢٦) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: الإتقان في علوم القرآن.تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، د.ط.ت)، الإتقان في علوم القرآن، وبهامشه: إعجاز القرآن للقاضي أبي بكر الباقلاني (مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط ٤، ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨م) .

٢٧) طاش كبرى زاده، أحمد بن مصطفى: مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم. مراجعة وتحقيق: كامل كامل بكري وآخر (دار الكتب الحديثة، القاهرة، د.ط.ت).

٢٨) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. حققه وعلق حواشيه: محمود أحمد شاكر (دار المعارف، مصر، ط٢، د.ت).

٢٩) ابن عاشور، محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير (الدار التونسية للنشر، د.ب.ط.ت).

٣٠) عبد الباقي، محمد فؤاد: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط.ت)

٣١) ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي (دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٣م).

٣٢) أبو الفتوح، محمد حسين: قائمة معجمية بألفاظ القرآن الكريم ودرجات تكرارها (مكتبة لبنان، بيروت، د.ط، ١٤١٠ هـ/١٩٩٠م).

٣٣) الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز.تحقيق: محمد علي النجار (المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، د.ط، ١٣٨٣هـ).

٣٤) الفيروز ابادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط (مؤسسة الرسالة بيروت، ط٣، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م)

٣٥) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله: تأويل مشكل القرآن، شرح: السيد أحمد صقر (دار التراث، القاهرة، ط ٢، ١٣٩٣ هـ/ ١٩٧٣م)

٣٦) القزويني، جلال الدين الخطيب: الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق وتنقيح: محمد عبد المنعم خفاجي (دار الجيل، بيروت، ط ٣، د. ت) .

٣٧) قطب، سيد: في ظلال القرآن (دار الشروق، بيروت والقاهرة، ط٥ شرعية، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م).

٣٨) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل: تفسير القرآن العظيم (دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، د.ط، ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م)، تفسير القرآن العظيم (دار الأندلس، د.ب، ط٢، ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠م).

٣٩) الكرماني، محمود بن حمزة: أسرار التكرار في القرآن. تحقيق: عبد القادر أحمد عطا (دار الاعتصام [القاهرة]، ط٣، ١٣٩٨هـ /١٩٧٨م)

٤٠) مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم (دار المغني للنشر والتوزيع، الرياض، ط ٢، ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٨م) .

٤١) النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد: تفسير النسفي (دار إحياء الكتب العربية: عيسى البابي الحلبي وشركاه، دب.ط.ت).

٤٢) النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد: غرائب القرآن ورغائب الفرقان.تحقيق: إبراهيم عطوة عوض (مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط١، ١٣٨١هـ/١٩٦٢م)

٤٣) الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد: أسباب النزول، تحقيق: السيد أحمد صقر (دار القبلة للثقافة الإسلامية بجدة ومؤسسة علوم القرآن، بيروت، ط ٧، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م)

ثبت المحتويات

المقدّمة ١٣

تمهيد: معنى المتشابه اللفظي وأهميته.................. ١٥

- المتشابه في اللغة: ١٥
- المتشابه في القرآن الكريم: ١٥
- بداياته وأهميته: ١٩

المبحث الأول: في معنى الآيتين.......................... ٢٤

- آية البقرة: ٢٤
- آية آل عمران: ٢٧

المبحث الثاني: من مواضع الاتفاق.......................... ٣٠

- أولا: الموضوع والغرض: ٣٠
- ثانيا: النظم: ٣٠

المبحث الثالث: من مواضع الاختلاف...................... ٤١

- أولا: اختلاف المقام: ٤١
- ثانيا: اختلاف النظم: ٤٢

الخاتمة ٥٥

ثبت المراجع.. ٥٧

ثبت المحتويات ٦٠

* * *